الامتداد الجغرافي والبعد الصوفي في مقاومة ابن ناصر بن شهرة (1851-1875)

بن حيدة يوسف .جامعة العربي بن مهيدي

– أم البواقي–

البريد الالكتروني: Benhida.Youcef@univ-oeb.dz

مقدمة:

يعتبر ابن ناصر بن شهرة من أهم زعماء المقاومة الجزائرية في منطقة الجنوب الشرقي والتي عرفت امتدادا زمنيا ومكانيا ، وتعد فترة كفاحه الأطول من بين كل الثورات الشعبية التي عرفتها الجزائر، إلا أنها لم تنل قسطا وافرا من الدراسة والاهتمام الكافيين ،حيث يصعب الإلمام بكل الأحداث التي ساهم فيها والمعارك التي خاضها ،كما أن تعدد مشاركته في المقاومات التي عرفتها منطقة الجنوب الشرقي وانتقالها إلى مناطق متعددة جعلت مسيرته الكفاحية تتميز بالتنوع والإثارة، حيث أن الفترة الزمنية التي استغرقتها مقاومته جعلته شاهدا على أحداث القرن التاسع عشر في الجزائر، فمن هو بن ناصر بن شهرة، كيف تجلى البعد الصوفي في مقاومته؟

حسب رواية ابو القاسم سعد الله بن ناصر بن شهرة بدأ نضاله في صفوف جيش الأمير وظل على مبدئه وثورته إلى الثمانينات حيث عاصر الشيخ بوعمامة وناصره فيها [1]،ولعل هذا ما جعل بعض الفرنسيين يصفون الأحداث التي عرفتها الصحراء في خمسينات القرن التاسع عشر أنها كانت هائجة تموج تحت تأثير ابن ناصر بن شهرة والشريف محمد بن عبد الله [2]، وتعتبر الروايات حول أحداث مقاومة ابن ناصر قليلة باستثناء ما كتبه الفرنسيون، حيث أن كتاباتهم لا تخلوا من ادعاءات، وقد كان للبعد الوطني والبطولي لهذه الشخصية والحراك الكفاحي وتنقلاته من منطقة لأخرى جعلته يلبي نداء الجهاد كلما أتيحت له الفرصة، وهو على وصف سعد الله أنه كان لا يترك فرصة ضعف للعدو إلا اغتنمها ضده[3]. وسنحاول التعرف على هذه المقاومة من خلال تحديد عوامل قيامها ومراحلها والمجال الجغرافي الذي شغلته وامتداداتها المكانية ،وأبعادها الدينية والصوفية.

1) نشأته وتكوينه البطولي :

ولد ابن ناصر بن شهرة بن فرحات سنة 1804م بالأرباع بالقرب من الأغواط ، وينحدر نسبه من قبيلة معامرة والحجاج الذين ينتمون بدورهم إلى الحرازلية أولاد حرز الله[4]،وهو ذو نسب شريف ينحدر من الساقية الحمراء، ومن هناك هاجر أجداده إلى الجزائر، حيث كان أبوه ابن شهرة وجده فرحات قائدين وشيخين على الأرباع [5]، وقد كان لنسب عائلته ومكانتها دور كبير في نشأته وتكوينه الديني حيث تعلم اللغة العربية، وتربى تربية دينية صوفية ،كما تعلم الفروسية، مما ساعده على التكوين البطولي وتدرب على القتال وخوض غمار الحرب في الميادين تحت قيادة الأمير عبد القادر، حسب رواية سعد الله في أن ابن ناصر قد تكون في مدرسة الأمير عبد القادر الحربية والوطنية، وكان من فرسانه الشجعان، وله تأثير كبير على الثوار في جمع الكلمة والانضباط ونشر العاطفة الدينية والوطنية [6].

1.أبو القاسم سعد الله ،الحركة الوطنية ج1(1830-1900)،دار الغرب الاسلامي ،ط1،بيروت ،1992،ص363.
2. Coyne(A) ,LeMzab,RevueAfr N°23 ,1879 ,OPU,Alger ,p206.
3سعد الله .المرجع السابق،ص362.
4.يحيى بوعزيز،ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ،ثورات القرن التاسع عشر،دار البصائر للنشر والتوريع ،الجزائر،2009،ص28.
5.أنظر : يحيى بوعزيز:كفاح الجزائر من خلال الوثائق،دار البصائر للنشر والتوزيع ،الجزائر،2009.ص137،عبد الرحمان بن محمد الجيلالي ،تاريخ الجزائر العام،ج4،ديوان المطبوعات الجامعية ،ط7،الجزائر ،1994،ص320.
6.سعد الله ،الحركة الوطنية ،ج1،ص362.

كما صاهر بن ناصر سلطان مدينة الأغواط أحمد بن سالم أحد زعماء المنطقة بزواجه من ابنته، ولكن هذه المصاهرة لم تدم طويلا، بسبب خضوع أحمد بن سالم للفرنسيين، واستنكار بن ناصر ذلك عليه، حيث طلق ابنته لما رفضت أن تصحبه إلى أعماق الصحراء بعيدا عن السلطات الفرنسية[7].

وحسب رواية (Rinn) في هذا الجانب فإن ابن ناصر بن شهرة رفض أن يطيع صهره الخليفة أحمد بن سالم زعيم الصف الشرقي، ورفض الفرنسيون أن يعينوه آغا على الأرباع عام 1846 خليفة لأبيه، مما أدى إلى غضب ابن ناصر وتمرده وحمله لواء المقاومة بداية من1851[8]، أما رواية "فيرو" فجاءت مختلفة حيث يذكر أن بن شهرة والد ابن ناصر لما عين قائدا على الأرباع أصبح خصما لأحمد بن سالم صاحب السمعة والمكانة في الأغواط، وحصلت بينهما حروب متواصلة انتهت بمقتل بن شهرة، فحقد ابنه ابن ناصر على ابن سالم صهره ،وعينه الفرنسيون(ابن ناصر) آغا على الأرباع سنة 1846بينما كان ابن سالم خليفة على الجنوب منذ عام 1844،ولكن سرعان ما نشب الخلاف بين الرجلين وقرر بن ناصر التخلي عن منصبه وتزعم الثورة عام 1851[9].

ورغم تضارب الروايات الفرنسية حول سبب قيام بن ناصر بالثورة، وربطها بسبب شخصي أو خلاف مع صهره بسبب تقلد المسؤولية[10]،فإن هذا راجع إلى مزاعم وادعاءات الكتاب الفرنسيين حول زعماء المقاومة ،حيث حاول هؤلاء المؤرخون أمثال Rinn أن ينفوا البعد الوطني عن هذه الثورات ويربطوها بمصلحة ذاتية أو تنافس أو غضب فردي [11]،ومهما يكن فإن الأحداث الأولى التي قامت من خلالها المقاومة قد أدت إلى اعتقاله ووضعه هو وعدد من زعماء الأرباع في إقامة جبرية بمعسكر بوغار[12].

7.نفسه،ص358.

8. **Louis Rinn,HistoiredeLInssurrection en ALgerie de 1871,Alger1891,p663-664.**

9. **Charles Feraud , Le sahara de Constantine (Rev Afr ,Alger, 1887),pp.133,134.**

10. التي كانت فرنسا قد اتبعتها في عهد الامبرطورية الثانية (1852-1870) باستمالة العائلات الأرستقراطية إليها وإسناد وظائف كبيرة لزعمائها مثل :القايد والآغا ،والباش آغا ،والخليفة ،وشيخ العرب،أنظر:بوعزيز،ثورات الجزائر ..،ص29.

11. Louis Rinn.**Maraboutes et khouans . Etude sur lislam en Algerie .**Adolphe jourda libraire editeur . Alger.1884p113.

12.بوعزيز ،كفاح الجزائر ..،ص138.

2) انطلاق المقاومة وامتداداتها الجغرافية :

استهل ابن ناصر بن شهرة مقاومته بعد أن غادر إقامته الجبرية ببوغار متخفيا في بداية شهر سبتمبر عام 1851متجها لمنطقة الشهبونية، ولحق به عدد من جنود الصبايحية من أجل إعادته، ولكنهم فشلوا أمام صموده وشجاعته ونجح في الانتصار عليهم[13]، وكانت هذه هي بدايته مع المقاومة، وأول تجربة له في الكفاح الثوري، حيث كان لهذا المظهر البطولي دور كبير في مواصلة العمل الكفاحي مستفيدا من التكوين الحربي والديني، وفي نشر العاطفة الدينية والوطنية، ولم تغره العروض ولا المساومات، وكان دائما في الصفوف الأولى أثناء المعارك متميزا ببرنسه الأحمر[14].

أ) انضمام ابن ناصر إلى ثورة الشريف محمد بن عبد الله:

اتجه ابن ناصر بن شهرة بعد هذه العملية إلى الشريف محمد بن عبد الله الذي كان قد استقر بالرويسات وبدأ حركته الثورية المسلحة ،وبدأ بالتنسيق والعمل معه، لمواجهة الزحف الفرنسي لاحتلال الأغواط ،حيث كلفت فرنسا الجنرال لادوميرول (LADMIRAUL) بقيادة هذه الحملة في ماي 1851، وأمام الاستعدادات الفرنسية للسيطرة على المنطقة وانطلاق المعارك ،كان الشريف وابن ناصر يعدان لمواجهة هذا الخطر، حيث تمكن ابن ناصر من السيطرة على قرية قصر الحيران في 31ماي 1851 وتحصينها، فاتصل به أعيان من سكان الأغواط للتعاون معه، مثل يحي بن معمر أحد شيوخ الأغواط، ثم اتجه بعد ذلك إلى مدينة القرارة للتسليح والتموين، وشارك ابن ناصر مع الشريف محمد بن عبد الله في حرب ضد الجيش الفرنسي بقيادة بيليسيه على مشارف الأغواط ، وتمكن من دخولها في نوفمبر 1852 بمساعدة بن شهرة [15].

هذا النصر لم يستمر طويلا، حيث بقيت المواجهات مستمرة، وعلى جبهات مختلفة ،إلا أن اندلعت معركة حامية الوطيس في(4ديسمبر 1852)[16]، انتهت بسقوط الأغواط وبعدها ورقلة

□□. و تذكر الروايات أنه قام باعتقالهم جميعا وانتزع منهم أسلحتهم وألبستهم عدا ما يسترعوراتهم ثم أطلق سراحهم وأمرهم بالعودة من حيث جاؤوا ليبلغوا رؤسائهم على لسانه أنه لايطيق بعد اليوم السلطة الفرنسية ولن يقبلها ،أنظر:المرجع نفسه،ص138.

□□.المرجع نفسه ،ص138.

□□.سعد الله ،الحركة الوطنية،ج1،ص359.

□□.نفسه،ص359

سنة 1853 على يد القوات الفرنسية بمساعدة حمزة ولد سيدي الشيخ [17]، ووقعت مجازر رهيبة من طرف القوات المحتلة في حق السكان، حيث استشهد حوالي 2500 شهيد، ومن الجانب الفرنسي سقط حوالي 60 قتيلا وعلى رأسهم الجنرال (بوسكارين) وموران قائد الفيلق إضافة إلى عدد من الجرحى [18].

اضطر كل من الشريف وابن ناصر إلى مغادرة الأغواط، ليستمروا في مواجهة القوات الفرنسية في مناطق متعددة، وكانت أصداء ثورتهم تصل إلى مناطق مختلفة منها منطقة الأوراس، حيث تناولت بعض التقارير في هذا الجانب أن بن ناصر قد لجأ إلى قبيلة النمامشة خلال شهر ماي 1856، ونجح في دفع هذه القبيلة إلى التمرد ضد فرنسا، وقد تسبب ذلك في اضطراب الأمن بالمنطقة مما جعل الضابط مونفيل (Monville) يحمل مسؤولية التوتر إلى بعض رؤساء الأهالي الذين أثبتوا عجزهم في مواجهة مقاومة بن ناصر مما يقتضي استبدالهم بموظفين آخرين أكثر طاعة وولاء [19].

وقد يكون لهذا الحراك الذي عرفته المنطقة في هذه الفترة من طرف بن ناصر بن شهرة تأثير في تفعيل الانتفاضة التي عرفتها الأوراس في سنة 1858 باعتبار أن مقاومة الشريف وابن ناصر كانت حتى سنة 1858 متواصلة وعلى أشدها رغم استيلاء الفرنسيين على الأغواط وتقرت والاتفاق مع أهل ميزاب [20]، وحصلت بين الطرفين عدة معارك بواحة ناقوصة وبريزينة والرويسات، وهزموا في هذه الوقائع وجرح بن ناصر بن شهرة فاضطروا إلى اللجوء إلى وادي غير مدة لمداواة الجروح والاستراحة، ثم واصلوا سيرهم باتجاه الجريد التونسي لتحين الفرصة المناسبة لمواصلة المقاومة[21].

□□.أنظر : بوعزيز ،كفاحالجزائر من خلال الوثائق ..،ص108،138.

18انظر: Mangin (E),Note sur Lhistoire de laghouat ,Revue African,N38 ,Annee1894.pp79,27.

19.صالح فركوس ،محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر (1830-1925)،مديرية النشر لجامعة قالمة،ديوان المطبوعات الجامعية ،قسنطيبنة،2010،ص88.

20.سعد الله ،المرجع السابق ،ج1،ص164.

21.بوعزيز، كفاح الحزائر ،ص138.

ب) **انتقال بن ناصر إلى الجريد التونسي :**

كانت منطقة الجريد تمثل قاعدة خلفية للمقاومة الجزائرية بالجنوب الشرقي، حيث كان ابن ناصر بن شهرة كثير التردد إلى هناك للاتصال بالمجاهدين، وتدبير الخطط وتوفير الذخائر والمؤون، وقد وجد مكانا مناسبا للاستقرار، واستئناف المقاومة كلما سنحت الفرصة وتوفرت الشروط المناسبة لذلك، كما وجد تأييدا كبيرا من الزوايا المتواجدة بالمنطقة كالزاوية القادرية والرحمانية بنفطة التي كان يشرف عليها الشيخ مصطفى بن عزوز العدو اللدود للفرنسيين منذ عام 1849، حيث كانت هذه الزاوية ملجأ للمقاومين الجزائريين الآخرين أمثال أولاد الطيب بن عمران الشعانبي من وادي سوف الذي هاجر الى تونس عام 1868، ومحمد بن بوعلاق رئيس أولاد يعقوب الذين كانوا ثائرين على القوات الفرنسية ، وكان هذا الاتصال بمثابة تنسيق وإعداد الخطط للمقاومة [22].

كان الاستعداد للمقاومة، حيث تؤكد ذلك رواية Rinn بقوله "في نفطة كان ابن ناصر بن شهرة الذي خلف أباه كآغا على الأرباع سنة 1846يقوم سنة 1851 بحرب مستمرة ضدنا في الصحراء الشرقية و لم يترك سنة واحدة لم يهاجمنا فيها أو قبائلنا التي رضخت لنا "[23]، وكان المقاوم بن ناصر بن شهرة يقوم بكتابة رسائله وتوجيهها إلى زعماء سكان الصحراء الشرقية يستحثهم فيها على حمل السلاح واللحاق بالمقاومة، وبمحي الدين ويبشرهم بقدوم جيش عسكري من قبل السلطان العثماني لتخليص الجزائر من الاستعمار[24]، ويذكر Rinn أن هذه الرسائل كان يرسلها إليهم الرؤساء الموالون لهم، وكان بعضها يحمل ختم الأمير محيي الدين، وبعضها ختم ابن ناصر بن شهرة، فمنها ما كان مرسلا إلى زاوية تماسين ،ومنها ماأرسل إلى السيد علي باي آغا تقرت و ورقلة وإلى رؤساء وأعيان طرود بسوف والأغواط ومتليلي وميزاب وإلى الشريف بوشوشة والمخادمة والشعانبة وسعيد عتبة بورقلة[25].

22.بوعزيز،كفاح الجزائر من خلال الوثائق،ص140.
23. Rinn, Histoire de Lisurrection .op ,cit ; p 107.
24.Ibid,p108
25. Ibid,p .106- 108

كما وجه رسالة قبلها إلى باي تونس محمد باشا يحيطه علما بقدومه إلى تونس ويطلب منه أن يستوصي به وبمن معه من الجزائريين خيرا باعتبارهم لاجئين [26]، ولكن النشاط الثوري الذي كان يقوم به بن ناصر ورفاقه جعل الباي محمد الصادق يطلب من وزيره مصطفى خزندار أن يعتقله هو ومحمد بن علاق ومن انضم اليهما ويضع حدا لنشاطهما [27].

ج) **مشاركة ابن ناصر في مقاومة أولاد سيدي الشيخ:**

عندما اندلعت ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864 التحق ابن ناصر بن شهرة بها ،حيث يذكر سعد الله: "أنه لم تكد تنتهي مقاومة شريف ورقلة حتى وجدنا ابن شهرة في صفوف الثائرين من أولاد سيدي الشيخ"[28]، وقد انتقل بن شهرة من الجريد التونسي إلى ورقلة واتصل بسي الأعلى واشتركا في قيادة المقاومة، حيث توجه الجيش إلى طاقين ووقعت معركة بينهم وبين جيوش الاحتلال، وفي أكتوبر من نفس السنة انتقل ابن ناصر وجماعته من أولاد سيدي الشيخ والأرباع إلى وادي النسا جنوب بريزينة للاتصال بالزعيم سيدي الحاج الدين بصحراء الساورة، ورغم أنهم أصبحوا يشكلون قوة إلا أن قوات الاحتلال أضعفتهم بقطع المؤونة عنهم ومنع القوافل من الوصول إليهم [29].

رغم ذلك تحركات بن ناصر بن شهرة، لم تتوقف حيث توجه سنة 1866 بصحبة زعماء ثورة أولاد سيدي الشيخ إلى المنيعة ومنها انتقل إلى عين صالح وتوات لتجنيد المجاهدين من توات والشعانبة والتوارق، وامتدت حركته إلى عين ماضي حيث اندلعت في سنة 1869 معركة بين القوات الفرنسية والمقاومة وانتهت بهزيمة القوات المقاومة واعتقال سي الأعلى وابن عمه سي قدور[30]، أما ابن ناصر فقد واصل مسيرته الكفاحية بانضمامه إلى الشريف بوشوشة أثناء ثورته في 1869،وعملا على تنسيق جهودهما في توسيع رقعة المقاومة في مناطق جديدة [31].

26.بوعزيز ،كفاح الجزائر .،ص142.
27.نفسه، ص142.
28.سعد الله ، المرجع السابق،ج1،ص362.
29.بوعزيز، كفاح الجزائر ،ص139 .
30.بوعزيز، ثورات الجزائر، المرجع السابق،،ص221.
31.بوعزيز، كفاح الجزائر ..،ص140.

وخلال كفاحه بالجزائر لم يقطع صلاته بتونس حيث كان يتردد عليها لجمع الأنصار وتدبير الخطط وتوفير الذخائر والمؤن، وكانت تصفه التقارير الفرنسية بالمتعصب والعدو الذي لا يلين، ولعل الحركية التي تميز بها الناصر جعلت سعد الله يصفه "كالبرق ينتقل من شرق الصحراء إلى غربها ووسطها [32]، وفي سنة 1870واصل مساره التحرري مع قادة المقاومة ليستقر بهم المقام بعين صالح ومعه ثوار الصحراء الشرقية وهناك التقت جيوشهما بجيوش الشعانبة بقيادة بوشوشة [33]، واشترك معه في تدعيم مقاومة المقراني والحداد.

د) انضمام ابن ناصر بن شهرة إلى ثورة المقراني والحداد 1871:

عندما اندلعت ثورة المقراني والحداد سنة 1871 انضم إليها ابن ناصر بن شهرة مع الشريف محمد بوشوشة الذي كان يقود ثوار منطقة الصحراء الشرقية من الشعانبة، وكان يدعو الناس لتأييده والانضمام إلى حركته، وقد كانت الرياسة حتى ذلك الوقت له بصفة عفوية، كما قام بتعيين ابن ناصر بن شهرة آغا على تقرت بعد أن رد عنها خطر علي باي [34].

ونظرا للموقف المعارض الذي اتخذه أولاد زكري في أحداث تقرت، فقد حاول بوشوشة أن ينتقم منهم وكلف ابن ناصر بن شهرة وبعض الشعانبة ليستعيدوا منهم قطعانهم وأمتعتهم، و لم يفلح بوشوشة في النيل منهم مرة أخرى عندما هاجمهم وتعرض لهزيمة كبيرة أمامهم، وفقد كثيرا من أنصاره ومواشيه وجماله [35].

استمر ابن ناصر في كفاحه إلى جانب المقراني والحداد مع عدد من رفاقه وكانت جبهة عملهم بالصحراء الشرقية، ونظرا لحيويته وحراكه المتواصل بين تونس والجزائر فقد مهد الطريق والسبيل لمحي الدين بن الأمير عبد القادر عندما قدم إلى منطقة الحدود أوائل عام 1871، واستمر في تدعيم المقاومة حيث قام بوشوشة بتعيينه آغا وخليفة له على تقرت بعد أن سيطر عليها وبقي

32.سعد الله ، المرجع السابق،ج1 ،ص362.
33.بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر ،ص222.
34.بوعزيز ،كفاح الجزائر.،ص140.
35 يحيى بوعزيز ،أضواء على كفاح الشريف بوشوشة ،ضمن كتاب موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب ج2،دار الهدى ،عين مليلة الجزائر ،2009،ص75.

بها حتى استطاع بدعم من رفاقه من أن يقضوا على المقاومة المضادة لهم، ونجحوا في اتخاذ بني يزقن الميزابية مستودعا هاما لذخائرهم وآلياتهم الحربية ومؤونتهم[36].

استمرت مقاومة بن ناصر رغم ما حدث من خسائر في انتفاضة المقراني، وخاصة بعد إلقاء القبض على بومزراق زعيم المقرانيين في جانفي 1872 قرب الرويسات، حيث واصل ابن ناصر مسيرته الكفاحية بباقي المقاومين إلى أعماق الصحراء ومنها إلى تونس، وهكذا نجح ابن ناصر في نقل المقاومة إلى داخل تونس واستطاع أن يساهم في استمراريتها في منطقة الجريد ، إلى أن أرغمه باي تونس على الرحيل فاتجه يوم 2 جوان 1875 من حلق الوادي إلى بيروت حيث استقر في دمشق إلى جانب الأمير عبد القادر إلى أن وافته المنية سنة 1884[37].

وهكذا كانت مقاومة بن شهرة متعددة الأطوار، حيث شارك في أغلب الثورات التي عرفتها منطقة الجنوب الشرقي، واستطاع أن يوسع مجالها بنقلها إلى الأوراس ومختلف المناطق الصحراوية بما في ذلك منطقة الجريد التونسي، وساهم في تسييرها من خلال قيادتها أو دعم قادة المقاومة والمشاركة في أغلب الانتفاضات التي عرفتها المنطقة، والقيام بالتعبئة الشعبية لاستقطاب المقاومين، و لم تتوقف مقاومته حيث عرف كيفية الحفاظ على استمراريتها بالرغم مما واجهه من صعوبات، و لم تثنه العزيمة فظل صامدا أمام القوات الفرنسية لولا تدخل باي تونس وإرغامه على الرحيل.

3) البعد الصوفي في مقاومة بن ناصر بن شهرة :

ساهمت الطرق الصوفية في تدعيم ومساندة الثورات الشعبية بمختلف مناطق الجزائر، من خلال العديد من الأشكال كالدعاية للانضمام إليها، وتجنيد مختلف الفئات الاجتماعية، وتزعم قادتها للمقاومات، ولعل هذا ما جعل الأوروبيين ينظرون إلى الطرق الصوفية على أنها تنظيمات سرية ذات مآرب سياسية [38].

ومن هذا المنظور أصبحت الزوايا بالمفهوم الاستعماري تشكل خطرا على الفرنسيين، حيث تطور نشاطها من الجانب التعليمي إلى الجانب السياسي وهذا ما يفسر حملها لراية الجهاد

36.بوعزيز، كفاح الجزائر..،ص141.
37.نفسه، ص141.
38.CHarleReberAgeron .Les Algeriens musulmans et la France 1871-1919,Paris presse universite de France,1968,p549.

بعد دخول الاستعمار وتوجيه أتباعها في مواجهة الاحتلال رغم ما يكتنفها من غموض حسب تعبير الأوربيين، حيث حاولت التقارير والدراسات الأوروبية أن تصل إلى مميزات هذه الطرق وتنظيماتها لوضع حد لخطورتها حيث حاول إدواردو دو نوفو أن يبين الهدف من ذلك بقوله: "أن جمعيات الإخوان هي عبارة عن أجسام تتكون هنا وهناك، لتجمع شخصياتها المسيرة، استشارات متبادلة، ومؤامرات تدير في سرية تامة "[39].

أ) ابن ناصر والطريقة القادرية:

لعل النشاط الصوفي في منطقة الجنوب الشرقي ساهم في تكوين رجال المقاومة، حيث تلقى بن ناصر بن شهرة تكوينا صوفيا عن أسلافه من شيوخ الأرباع حيث تلقى عن الشيخ أحمد الشاوي بالأغواط مبادئ الطريقة القادرية[40] التي عرفت نشاطا واسعا في المنطقة، وكان لها دور كبير في المقاومة الشعبية وخاصة تلك التي قادها الأمير عبد القادر الذي كان شيخا للطريقة القادرية، وكان يتمتع بمكانة وسلطة روحية قوية أهلته لأن يقصده زعماء القبائل واستطاع أن يوظف الطريقة لخدمة مشروع الدولة ومقاومة المحتل، وقد كان ابن ناصر بن شهرة من رجال الأمير عبد القادر تكون في مدرسته الحربية والوطنية وكان من فرسانه الشجعان[41].

يرجع هذا إلى الهدف المشترك والدفاع عن الوطن ضد الخطر الخارجي ،إضافة إلى البعد الديني الذي أصبغه على مقاومته وخاصة الانتماء الصوفي القادري الذي ساهم في تجنيد العديد من الزوايا بمختلف مناطق الوطن وهي كثيرة وصاحبة نفوذ بالشرق الجزائري مع الطريقة الرحمانية[42].

39.إدواردو دو نوفو، الإخوان دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر ،ترجمة وتحقيق:كمال فيلالي، دار الهدى ،عين مليلة ،ص106،107.

40.تنسب إلى الشيخ محي الدين عبد القادر بن أبي صالح المولود فيمدينة جيلان(471 هـ/1077م)وكان ظهورها بالعراق في القرن الخامس الهجري ،وانتقلت بعدها إلى مناطق مختلفة من العالم الإسلامي وتقوم هذه الطريقة على أسس ومبادئ وبرنامج تربوي يؤكد اتباع كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ،وتخصيص ورد يتضمن : – الإستغفار مائة مرة (استغفر الله) – التسبيح مائة مرة (سبحان الله) ذكر (لا إله إلا الله مائة مرة)– الصلاة على النبي وآله وصحبه مائة مرة ، وتسمى هذه الأذكار والدعوات بالورد الكبير ،ومنها مايقرأ خمس مرات في اليوم عقب كل صلاة فرضومنها مايقرأ مرةفيالأسبوع عقب صلاة العصر ويسمى الوظيفة.كما أن القادرية المقربين أثناء الحضرة يقرأون أيضا الفاتحة بعد الصلوات الخمس،والتكبير (الله أكبر) مائة مرة، ويتلون سورة ياسين**أنظر:** إبراهيم عبد الرزاق ،الطرق الصوفية في القارة الإفريقية،دارالثقافةللنشر والتوزيع،الطبعة الأولى ،القاهرة،2004،ص34،33. أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،ج4(1830-1954) دار البصائر ،الجزائر ،ص43،40.

41.سعد الله ،المرجع السابق ،ج1،ص362،363.

42.ناصر الدين سعيدوني ،مقاومة الحاج أحمد باي بالأوراس،ضمن كتاب الجزائر منطلقات وآفاق،دار الغرب الإسلامي ،بيروت،ط1،2000،ص64.

ولعل القاسم المشترك بين المقاومات الشعبية هو الجهاد ضد العدو، إضافة إلى الانتماء الروحي والطرقي هو الذي جعل التقارب بين قادة المقاومة في مواجهة الاحتلال، حيث جمعت الطريقة القادرية بين الأمير عبد القادر وبن ناصر بن شهرة باعتبار أن الطرق الصوفية والزوايا كانت تشكل المناخ السائد في تلك الفترة كما كان الريف مواليا للطرق الصوفية وتولى مهمة الدفاع عن الدين والأرض ورفع راية الجهاد في وجه المستعمر، وكان طبيعيا من خلال تتبع سلسلة المقاومات الشعبية أن نجد قادتها ومحركيها الأساسيين هم شيوخ وأتباع الطرق الصوفية والمرابطون[43].

ولعل البعد الديني الصوفي والمتمثل في الطريقة القادرية هو الذي جعل مقاومة بن ناصر بن شهرة تعرف امتدادا ودعما صوفيا من شيوخ الطريقة ، حيث اتخذ العديد من مشايخ الطريقة بالجنوب الشرقي الجزائري ومن الجريد منطلقا في نضالهم ضد الاستعمار الفرنسي، ومنهم ابن ناصر بن شهرة الذي كان يلتجأ إلى نفطة وتوزر بالجريد بعد دخول الفرنسيين الأغواط سنة 1852م، واتخذها منطلقا لشن هجوماته على الفرنسيين في الجزائر[44].

ظلت فرنسا قبل احتلالها لتونس، في صراع مع القادرية على الحدود من البلدين، الأمر الذي أدى إلى لجوء بعض زعماء الطريقة القادرية إلى المنطقة لتأسيس زوايا لها، والأمر يتعلق بالشيخ إبراهيم بن أحمد الكبير الذي ظهر منذ 1843، والذي كان من ألدَ الأعداء للاستعمار الفرنسي للجزائر، وانضم إلى مقاومة الأمير عبد القادر، ولعبت زاويته دورا بارزا في دعم المقاومة الجزائرية وفي جمع الأموال والأسلحة وتقديمها للجزائريين، كما تحولت إلى تجمع للمجاهدين، حيث أقام فيها الأمير عبد القادر بعد ثورة 1871م إلى أن التحق بالشام، وابن ناصر بن شهرة[45] الذي اتخذها ملتجأ ومكانا للتعبد وأداء الطقوس الدينية، ومنها كان يوجه رسائله إلى رفاقه وإلى الحكام، حيث وجه رسالة إلى باي تونس يحيطه علما بذلك ويعلمه أنه قد وجه إليه أخاه سي

43.مقلاتي عبد الله ،الطرق الصوفية في الجزائر أمام جدلية فاعلية حضورها الاجتماعي وhالسياسي :الموقف من الإحتلال الفرنسي نموذجا ،منشورات جامعة أدرار العدد الأول خاص الملتقى الدولي الجادي عشر ،التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة ،ج2،2009/2008،ص306.

44.التليلي العجيلي ،"الوضع الطرقي بالجريد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر"،المجلة التاريخية المغربية ،العدد76/75،زغوان تونس،ماي 1994ص307.

.نفسه،ص308.

النعيم وبعض رفاقه لزيارته، وطلب منه أن يستوصي به وبرفاقه اللاجئين خيراً، وأن مهمتهم دينية باعتبارهم لاجئين خرجوا من الجزائر في طاعة الله ورسوله [46].

وفي هذه المؤسسة الدينية وطد علاقته مع اللاجئين الجزائريين، واتخذها منطلقا لهجماته على الفرنسيين في الجزائر، أمام معارضة باي تونس لهذا النشاط الكفاحي[47]، كما عملت الزاوية باعتبار انتمائها الصوفي وعدائها للفرنسيين بدعم المقاومين ،ومن ذلك أيضا قيامها بجمع السلاح والأموال وتقديمها للجزائريين ما بين سنة 1870 -1871 وقامت بتحريض سكان الجريد وقبائل النمامشة على الالتحاق بصفوف المقاومين[48].

ب)دور الرحمانية في مقاومة بن ناصر :

كما كان للطريقة الرحمانية مساهمة كبيرة في المقاومة حيث تحالفت مع القادرية في مواجهة الاحتلال الفرنسي ودعمت مقاومة الأمير عبد القادر بالجنوب الشرقي ،حيث يذكر دو نوفو في هذا الجانب "بأن إخوان عبد الرحمان قدموا مساعدات من المال والرجال وساهموا في حروب عبد القادر الأخيرة "[49]، حيث عين الأمير عبد القادر الحاج البشير خليفة له بمنطقة الجنوب الشرقي ولعل هذا ما عبر عنه دو نوفو بقوله عن الرحمانيين أن الاهتمام الكبير الذي يولونه للكفاح الطويل والصداقة التي تربط الأمير بالخليفة الحاج البشير لا تترك مجالا للشك عن المواقف العدائية "[50].

وقد لعبت زاوية نفطة الرحمانية – التي أسسها مصطفى بن عزوز (بن محمد) بعد هجرته إلى تونس أثناء احتلال الفرنسيين لبسكرة (1843-1844)، دورا مشرفا في دعم المقاومة الجزائرية، كما كان الشأن بالنسبة للزاوية القادرية، حيث حولها شيخها مركزا للمجاهدين الجزائريين وملجأ للهاربين من ظلم الاستعمار الفرنسي[51]، منذ سنة 1849، حيث اتخذ ابن ناصر بن شهرة من الزاوية ملجأ وملاذا ومنطلقا لنشاطه الثوري وتعبئة الجماهير ومنها كان يوجه الرسائل إلى القبائل والعشائر الجزائرية حيث يذكر رين في هذا الجانب بأن رؤساءهم الموالون لهم

46.حول نص الرسالة كاملة أنظر: بوعزيز،.كفاح الجزائر.ص139،143.
47.نفسه...،ص139.
.□□العجيلي ،المرجع السابق،ص307.
49.دونوفو،المرجع السابق ،ص72.
50.نفسه ،ص72.
51. سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،ج4،ص146.

قد أرسلوا لهم عدد كثير من هذه الرسائل ،وقد تجمع لدى القائد العسكري لناحية بسكرة نحو 44 رسالة كلها محفوظة في وثائق الولاية ،وكان على بعضها ختم الأمير محي الدين ،وعلى بعضها ختم ابن ناصر بن شهرة ،فمنها ما كان مرسلا إلى زاوية تماسين ومنها ما أرسل إلى السيد علي باي آغا تقرت و ورقلة وإلى رؤساء أعيان طرود بسوف وإلى الأغواط ومتليلي وميزاب وآل الشريف بوشوشة وإلى المخادمة والشعانبة وسعيد عتبة بورقلة وغيرهم ."[52]

وقد ساهم التحالف الطرقي بين الطريقة القادرية والطريقة الرحمانية في تدعيم المقاومة ،ومن زاوية نفطة استأنف ابن ناصر نشاطه الثوري ،ورغم ذلك إلا أن سياسة الزاوية تغيرت بعد أن أصبح على رأسها الشيخ الحسين بن علي بن عثمان حيث يذكر يحي بوعزيز في هذا الجانب أن هذا الشيخ أصبح من أعوان الفرنسيين وهو الذي أبلغهم سنة 1871 بوصول محيي الدين ابن الأمير عبد القادر صحبة ابن هلال أقدم كتاب أبيه، ومقابلته مع ناصر بن شهرة وبوشوشة [53].

كما يظهر دور الطريقة السنوسية في دعم المقاومة بالجنوب الشرقي الجزائري، حيث قام الشيخ السنوسي بدعم مقاومة الشريف محمد بن عبد الله، وكتب السنوسي الرسائل إلى أهل الطرق والمؤيدين له يطلب منهم دعم حركة هذا الشريف، ويروي دوفيريه أن الشخصية التي كانت وراء دعم هذا الشريف هو الحاج أحمد التواتي، ونظرا لمشاركة ناصر بن شهرة إلى جانب محمد بن عبد الله الشريف في كفاحه فإنه تلقى تأييدا ودعما من طرف الطريقة السنوسية، وهذا ما جعل الكتاب الفرنسيين يحاولون أن يربطوا مقاومة بن ناصر بن شهرة ومحمد بوشوشة بعمالتهم للسنوسيين[54].

كان للنشاط الذي قام به ناصر بن شهرة أثر في تذمر الحكام الفرنسيين حيث وصفته التقارير الفرنسية بالتعصب والعدو الذي لا يلين، كما يقف شارل فيرو موقف الغاضب من النشاط الثوري للناصر بن شهرة والشريف لأنهما سرعان ما يستجيبون لداعي الجهاد، وهم في نظره جهلة جدا لا يقدرون إنسانية الحضارة الأوروبية حق قدرها، وهم دائما في نظره أيضا" لا

52. الجيلالي ،المرجع السابق،ص322.
53.يحيى بوعزيز ،الحقيقة عن دور زاوية صدوق والإخوان الرحمانيين في ثورة 1871،موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب ،ج2،دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع،عين مليلة ،2009،ص162.
54.بوعزيز،ثورات الجزائر .. ،ص28.

يفكرون في الوجود الفرنسي إلا على انه سحابة عابرة "، ولذلك فهم يعلمون دائما على طردنا من أرض الإسلام [55].

ويمكن القول بأن النشاط الصوفي كان له دور كبير في المقاومة في الجنوب، حيث شاركت عدة طرق في تأطير الثورات الشعبية ودعمها في فترة الخمسينات مثل الطريقة القادرية والرحمانية وكذا السنوسية والشيخية، مما جعل مقاومة بن ناصر بن شهرة تأخذ بعدا دينيا صوفيا، انطلق من النشاط الطرقي في توسيع جغرافية المقاومة، وفي تنقلاته من شرق الصحراء ووسطها إلى جنوبها وصولا إلى الأراضي التونسية وبخاصة منطقة الجريد.

55.سعد الله ،الحركة الوطنية ..،ج1،ص363.

قائمة المصادر والمراجع :

1)إبراهيم عبد الرزاق ،الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، دارالثقافةللنشروالتوزيع،ط1 ،القاهرة،2004.

2) بوعزيز يحيى: - ثوراتالجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ،ثورات القرن التاسع عشر،دارالبصائر للنشر والتوزيع ،الجزائر،2009.

- كفاح الجزائر من خلال الوثائق،دار البصائر للنشر والتوزيع ،الجزائر،2009.

- موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب ج2،دار الهدى،عين مليلة،2009.

3) الجيلالي عبد الرحمان بن محمد،تاريخ الجزائر العام،ج4،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1994.

4) دونوفو، إدواردو ،الإخوان دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر ،ترجمة وتحقيق:كمالفيلالي،دار الهدى ،عين مليلة،2003.

5) سعد الله ، أبو القاسم ،الحركة الوطنية ج1(1830-1900) ،دار الغرب الاسلامي ،ط1،بيروت ،1992.

6)فركوس ،صالح ،محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر (1830-1925)،مديرية النشر لجامعة قالمة،ديوان المطبوعات الجامعية ،قسنطيبنة،2010.

7)التليلي العجيلي ،"الوضع الطرقي بالجريد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر"،المجلة التاريخية المغربية ،العدد76/75،زغوان تونس،ماي 1994.

8) سعيدوني،ناصر الدين ،مقاومة الحاج أحمد باي بالأوراس،ضمن كتاب الجزائر منطلقات وآفاق،دار الغرب الإسلامي ،بيروت،ط1،2000.

8) مقلاتي عبد الله ،الطرق الصوفية في الجزائر أمام جدلية فاعلية حضورها الإجتماعي والسياسي :الموقفمنالإحتلال الفرنسي نموذجا ،منشورات جامعة أدرار العدد الأول خاص الملتقى الدولي الحادي عشر ،التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة ،ج2.2009/2008.

9.CharlesFeraud ,LeSaharadeConstantine(revue africane Algerv1887).

10CHarleReberAgeron .Les Algeriens musulmans et la France 1871-1919,Paris presse universite de .France,1968,p549.

Louis Rinn,HistoiredeLInssurrectio en ALgerie de 1871,Alger189111.

12.LouisRinnMaraboutes et khouans .etude sur lislam en Algerie .Adolphe jourda libraire editeur, Alger.1884.